

بين القول والعمل

لحضرة الأستاذ الشيخ سليمان توار

شيخ معهد القاهرة

أقولنا وأعمالنا بمرأى ومسمع ، إن من أقوالنا لأقوال الإصلاحية الاجتماعية الخطيرة ، تلك الأقوال التي دوت في أسماع الزمان، وتضاءلت بإزائها أقوال كثير من زعماء الأمم وقادة الشعوب ، أقوال معجبة مذهشة تتجلبها على أنفسهم المسئولون وغير المسئولين . في أسلوب لا يرتاب سامعه في أنه أسلوب الإيمان والإخلاص ، ومنطق العقيدة والخلق ، وصيحة العزم والحزم ، ثم ماذا بعد هذا ؟ إما أن تكون تلك الأقوال أصواتنا ذهبت في أجواز الفضاء ، فلم يعمل أصحابها شيئا مما تتجلبوه على أنفسهم في تلك الأقوال ، بل ولا هم حاولوا أن يعملوا ، وتلك المحاولة أقل درجات الصدق في الأقوال ، وإما أن تشفع تلك الأقوال الإصلاحية العظيمة بأعمال ضعيفة مضطربة لا ثبات لها ولا استقرار ، وربما ألح بها الضعف والاضطراب وعبثت بها الأهواء حتى درست فيما درس ، وألم بها ما ألم بأمثالها من العفاء والفتناء. ذلك لأن هذه الأعمال لم تتأسس على الإخلاص ، ولم تنحصر على دعائم القوة والثبات ، وهي الفيرة على العمل والمثابرة والاصطبار .

يستطيع كل واحد منا أن يرجع الى تلك الأقوال الإصلاحية الخطيرة التي أرسلتها أفواه المنابر والمجتمعات ، ووعتها أذان الوجود ، ويستطيع بعد ذلك أن يزن هذه الأقوال بموازين الصدق والإخلاص والعزم والتنفيذ ، ولا أرتاب بعد هذا في أن كل واحد منا سيألف نفسه لا محالة هذا السؤال : أين أعمالنا من أقوالنا ؟ وأين قلوبنا وعزائمنا من ألسنتنا وأفواهنا ؟ ولعلنا نتفجع بأن نسأل أنفسنا هذا السؤال .

رجوعا إلى الماضي القريب لنستعرض قليلا من أقوال المسئولين في مواقف عظيمة مشهودة ، مواقف الإصلاح الاجتماعي — ويكفي أن نرجع الى الأقوال التي قد تدفقت في ناحية واحدة فقط من نواحي ذلك الإصلاح — هي ناحية الإصلاح الاقتصادي .

من ذلك إصلاح الأراضي — الأخذ بيد الفلاح — إصلاح مسكنه — توفير ثروته — تصريف حاصلاته إصلاح حاله الصحي والخلق والاجتماعي بوجه عام وبقفة قصيرة عند تلك التصريحات الهامة ، ثم نظرة بعد ذلك إلى ضعف الأراضي الزراعية — إلى الفلاح وفقره — إلى كساد حاصلاته — إلى ملابسه الخلقة — إلى مسكنه القذر — إلى حاله الصحية

وانحطية المحزنة ، نظرة إليه في جميع أحواله الثعسة المؤلمة ولا أريد حاله في خصوص وقتنا هذا . فلهذا العالمية قسوتها وحكمها وشذوذها العام . ولكني أريد حاله في الماضي وقبل هذه الكارثة العالمية الحاضرة ، في ذلك الماضي القريب الذي طبقت فيه صيحات الإصلاحية جميع الآفاق . لا ريب أن حال الفلاح كان سيئا ولم يكن سيئا إلى هذا الحين . ولا أرتب في أنه لم ينل قسطا ولو يسيرا من تلك التصريحات المستوثة ، وهذا ما أعرفه . وكنت أود وما زلت أود أن أكون مخطئا في تقديري ، فأسمع صيحة من صيحات الحق تقول : لا لا ! إن الفلاح قد نال .

ستقول : لنا عاجزون عن تنفيذ الوجود الإصلاحية للفلاح ، وغير الفلاح في هذا الوقت لدى نحشى ألا يبقى على ما نحن فيه في شتى النواحي والجهات .

وهذا اعتذر إن يسمع الآن فلا يسمع عن الماضي . وإلا فما الذي أمجزنا عن تنفيذ إذ ذلك ؟ ما الذي أمجزنا عن إصلاح حال الفلاح والأخذ بيده في جميع شؤونه حينما كان الرضاء العالمي ، والنظامينة العامة ، والسلام ، والأمن الشاملان تلقى ظلها الوارفة على معظم أقطار الدنيا ، على جميع الطبقات والهيئات ما عدا مثل ذلك الفلاح ؟

الفلاح اليوم هو الفلاح أمس ، وشقاؤه أمس هو شقاؤه اليوم ، والأقوال والأعمال اليوم هي الأقوال والأعمال أمس . ولم يرتبلا يذكر فيما ألفناه وفيما عرفناه .

هذا وصف قليل لبعض أقوالنا وأعمالنا التي تتصل بناحية واحدة من نواحي الاقتصاد . أما لأقوال السياسة والاستقلالية التي كانت ولم تزال تتدفق من أفواه جريئة كأنها عقائد القلوب صاغتها البلاغة أقوالا ، ونشرتها على صفحات الأثير مبدأ وتضحية وإيمانا ، هدفها نيل أو أسمى الحريات العالمية ، والوصول إلى قمة العزة القومية والاجتماعية . فتلك خطب ومقالات ورسائل ومحاضرات صاغتها الحزبية السياسية ودبجتها الأهواء الشخصية . تبدأ بعديث الوطنية الهادئة التي تؤكد استمداها للتضحية بالأرواح والأموال وتوجه إلى وجهة واحدة هي الصالح العام . ثم تنتهي تنكم الخطب والمقالات ، وهاتيك الرسائل والمحاضرات عند وصول الساسة المقاول إلى غرض من أغراض الدنيا الحقيرة كما تتلاشى حينما تتلاقى عند المناصب لزائلة والمراكر التي لا تدوم - مبادئ أو شبه مبادئ تقال وتنتشر ، وتختلف وتختلف ، وتتخاضم وتتصادق ، ثم تتحطم عند حطام الدنيا وعرضها الحقيرة الأرائل ! ما هذا ؟

كأنى بعض هؤلاء الساسة يحنقر العقلية الاجتماعية ولا يكثرث بالمسئولية الخلقية ، فإن صح هذا فعلى هذه العقلية الاجتماعية أن تفضب لهذا الاحتقار ، وأن تعالج تغيير هذا الخلال السيء بحسابتها المسئولين عن أقوالهم ، وبتدقيقها في ذلك الحساب .

تروون أيها القراء الكرام أن الأقوال السياسية الاستقلالية والقومية قوية جدا في بلدنا هذا في جميع المحافل والأندية ، في جميع المناسبات . أما الأعمال إذا قيست بتلك الأقوال لحالها ، كما تروون ، ضعف واضطراب والتواء والخراف ، أولف ودوران ، ثم اتجاء بعد ذلك إلى تحقيق الأغراض والأهواء بدون نظر إلى ما ينجم عن ذلك من الفساد العام ومن التحلل والفتناء .

ن تفتح أمة يكثر فيها الثائلون الذين لا يعملون بما يقولون ، فكيف بأمة يكثر فيها العاملون بعكس ما يقولون ؟

الله الذي بعد حاشية الأعين وما تخفى الصدور ، علم أحوال الثائلين في هذه الحياة . وأن مهم من يقول ولا يفعل ، وأن منهم من يفعل عكس ما يقول ، فأنزله في كل من القسمين آيات من كتابه الحكيم ، أثبت تلك الآيات عن أحوال هؤلاء الثائنين ، وكشفت عن أعراضهم ، وفضحت نواياهم ، وأندرت بعضهم ببعضهم وما بعد جهنم من عذاب .

نزل فيمن يقول ولا يفعل ما يقول قول الله تبارك وتعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ *

وهذه الآية كما تروون عبرة اجتماعية عظيمة ، ودعوة إلى فضيلة لها خطرها في كرامة الاجتماع وشرفه . يسأل الله الناس في هذه الآية سؤال تحييز وتقريع ، يقول لهم : أي سبب يدعوكم إلى أن تقولوا ما لا تفعلون ؟ ويبين لهم في إزمام حاسم أنه ليس هناك من سبب مطلقا يبرر أن يقول الإنسان ما لا يفعل ، ما دام للقول معنى وللصدق قيمة ، وللخلق تقدير وأعتبر . ذلك أنه لا يبرر القول إلا اعتراف العمل بمعناه ، والأخذ في تنفيذ مقتضاه . وأنه ليس وراء التنفيذ والعمل من سبب آخر يمكن أن يستند إليه منطق الإخلاص ، وتعتمد عليه كلمة الصدق . فأما منطق النفاق — وهو الداء الاجتماعي العضال — فله دواعية الحقيرة وهو كدواعيه من أشد الأمور مقتا عند الله ، ولا يعقل مع مقت الله أن يحسن حال أو يستقر نظام .

تدعونا الآية الكريمة إلى أن نهكر في الكلمة قبل إلقائها ، فإن المرء حرقبل أن يتكلم فإذا تكلم كان أسير كلمته ، فإن كان عازما على أن يحقق ما يقول تكلم ولا تثريب عليه . مادام الوفاء قصده ، ثم هو لا يأنو جهدا بعد ذلك في تنفيذ ما قال ، ولا فليمسك لسانه ، ولا يبرخ

له عتاه ، وفي كل من الحالين تفضيلة ولسل والكرامة والمجادة . فإما قول بلا اعتراف ولا تنفيذ فنشؤه ضعف لخلق ورداءة الطبع والاستهتار . وأما من يفعل عكس ما يقول فقد أزل الله فيه الآيات :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۗ فَحَسِبُهُمْ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمِهَادُ *

هذا صنف خطر من القولين . إذا تكلم بفيض لسانه بأفعية على الإصلاح ، والتزوع إلى انخير العام ، منطقته في إصلاح الشؤون الاجتماعية والسياسية جميل رائع ساحر . ذلك قول الله يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، وعمله شر مستتار ، يخادع الناس بسحر بيانه ، ثم يجترئ على الله في غضون هذا الخداع فيقول : الله شهيدى على أن ما فى قلبى مطابق لما نطق به لسانى ، وإنه الإخلاص للناس وحب الخير لهم ، ولو انى وليت أمرهم لكانت ولايتى عليهم أمنا ورحاء وتدلا ورحمة .

فإذا أتبع له أن يلى أمر الناس ، وظفر بأربه ظهرت صورته الحقيقية ، فأمن فى طرق الضلال ، وتفنن فى ضروب الفتن ، حتى أتى على الأخضر واليابس . ذلك قول الله جل وعلا :

” وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ “

وهل بعد هذا إلا أن يختل النظام وتسود افوضى ويستشرى الفساد ؟ مثل هذا الساحر المفسد إذا قيل له اتق الله وارجع عما أنت فيه من بنى وإفساد ، واذكر أنك إنما وليت لتصنع ، وأنت أشهدت الله على أنك لا تصمر للناس إلا الخير والإصلاح ، أحفظته النصيحة فزاد إثمه وفساده ، وأبى عليه اعترازه بسلطانه إلا أن يبالغ فى الضلال .

ذلك أخطر أنواع المنافقين ، وأشدهم فتكا وتمزيقا لكان الاجتماع . إذا كثرت أمثاله فى أمة ذلت بعد عزة ، وافتقرت بعد غنى ، وأفلست بعد يسار ، وسيطرت عليها أطوع أجنبية ، لا تبقى ولا تذر .

هذا أيها المستمعون الكرام بعض ما نسير إليه الآيات الكريمة من عظات وعبر. ومنها نعلم أن الناس أقسام : قائلون خداعون يعملون ضد ما يقولون ، ويفسدون بعد أن يقولوا إننا مصلحون ، وهؤلاء إن أفلتوا من عقاب الله في الدنيا — ولا إخالهم يفلتون — فعاقبهم في الآخرة حتم لا ريب فيه . وقائلون لا يعملون بما يقولون ، وخطرهم كذلك على المجتمع عظيم . وقائلون يعملون بقدر ما يقولون ، أو يعملون كثيرا ولا يتحدثون عن أعمالهم إلا إذا اضطروا إلى الحديث لغرض من الأغراض السامية . وهذا القسم الثالث هو الذي يدعو إليه القرآن لأنه عماد الاجتماع الصحيح في كل زمان . وقد بين القرآن وفصل ووصف كل شؤون الدنيا والدين ، ورسم لنا أسس انعطط الاجتماعية والتشريعية والتهديبية . فهل تن للناس أن يرجعوا إليه في كل شؤون الحياة ؟ في التشريع ، في الاجتماع ، في الأخلاق وفي الآداب ؟

فإلى الأخذ بتعاليم القرآن أيها المسامون . وإلى العمل الصالح النافع أيها المؤمنون .

” وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّيَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ “ .

والسلام عليكم ورحمة الله .

سليمان نوار